

الحجابة

معنى الحجابة لغة واصطلاحاً :-

ترجع كلمة (الحجابة) لغة الى اصل حجبت الشيء بحجبه حجاً، وحجبه اي ستره. وكل ما حال بين شيئاً فهو حجاب وجمعه حجب. فجاء في القرآن الكريم "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالأخرة حجاً مستوراً" ووردت كلمة الحجاب في القرآن الكريم في عدة مواضع على معنى متشابه فقال تعالى {وإذا سألهواهن متاعاً فاسألهواهن من وراء حجاب} واستخدم لفظ الحجاب تاريخياً قبل الاسلام على حجابة الكعبة (البيت الحرام) وكانت لقصي وأولاده فلا يدخل احد الا بأذن منهم .

والحاجب اسم فاعل من الحجب يطلق على كل من وقف على باب السلطان يوصل اليه الاخبار من الرعية ويأخذ الاذن منه لهم .

نشوء وتطور نظام الحجابة

اختلف المؤرخون والفقهاء في تحديد بدايات نشوء نظام الحجابة، فمنهم من يرجع اصولها إلى النظم العربية قبل الاسلام، فقد كان ملوك العرب من المناذرة واليمن قد اتخذوا لهم حجاباً. في حين يرجع البعض الآخر نشوء الحجابة إلى العصر الاسلامي ومنذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد اتخاذ حاجباً ينظم لقاء المسلمين، ويستثنون في ذلك إلى احاديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وعن اصحابه (رضي الله عنهم) فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : " من ولی من امر امتی شيئاً فليريق في حوائجهم رفق الله به يوم حاجته، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلقه وحاجاته " .

ومنهم من يرى ان اتخاذ الحجاب لم يكن مقبولاً في الشريعة الاسلامية ولذلك لم يتخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه (رضي الله عنهم) من يمنع ذوي الحاجات في ابوابهم، وعد بداية نشوء الحجابة عندما انتقلت الخلافة الى الملك .

اما القائلون بظهور نظام الحجابة منذ عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهم يتشهدون بآيات من القرآن الكريم التي تشير الى وجود (الاستئذان) من الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل الدخول عليه لأنها

تعد من آداب الزيارة، فقد جاء في قوله تعالى : { يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيتكم حتى تستأنوا و وسلموا على اهلها ذلكم خيراً لكم لعلمكم تذكرون } و قوله تعالى : { يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم } .

ويبدو مما ورد في القرآن الكريم انه لا وجود لهذه الوظيفة في ايام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا في صدر الاسلام، وانما هي طريقة ادبية في التماس الاذن عند ارتياح مجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) او مجالس الخلفاء الراشدين بشكل كيفي لما قد يؤدي اليه ذلك من ارباك اعمالهم وهم يؤدون امور الدولة، ومن هنا يكون التماس الاذن امراً تفرضه قواعد آداب الزيارة وان قواعد الاستئذان التي وصفها القرآن الكريم وطبقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين لا تعني بداية لنشوء نظام الحجابة بمفهومها الوظيفي بالرغم من ورود اسماء بعض الذين كانوا يقومون بهذه المهمة (الاذن بالدخول من موالي رسول الله وموالي الخلفاء الراشدين) .

ولم يتخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الاذن في كل الاوقات، وانما عندما كان يريد ان يخلو الى نفسه او الى بعض الامور المهمة، وهي من الاجراءات الضرورية لتنظيم امور الدولة. فلقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يستقبل في المسجد المسلمين والوفود ولم يحجب نفسه عن الناس .

ولم يكن للأذنون الذين اتخاذهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتلقون عطاً لقاء اشغالهم هذا المنصب لكنهم عرفوا به فلقد تعدد الأذنون، ولم تكن لهذه الوظيفة تقاليدها الخاصة .

ولقد سار الخلفاء الراشدون مسيرة نبيهم، وظهرت ملامح نظام الحجابة في عصرهم اثر قيام حركات التحرير والفتح، وكثير عدد الداخلين في الاسلام من شعوب متعددة ادى ذلك الى تعدد وتعقد مصالح الناس، وامور الدولة مما كان يتطلب ان ينظر الخلفاء والولاة فيها، فاقتضت هذه الوضاع الجديدة ان يتولى شخص لتنظيم اوقات دخول الناس عليهم حسب اهميتهم ومن هذا المنطلق فقد اجاز الفقهاء للخلفاء اتخاذ الاذنين (الحجاب) لتنظيم وترتيب الناس الداخلين عليهم.

وقد تطورت قواعد الاذن في عهد الخلفاء الراشدين ووضعت اسس في ترتيب الناس ومقابلتهم فجاء في رسالة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الى عامله على البصرة ابو موسى الاشعري، ان يأخذ اولاً لأهل القرآن واهل التقوى واهل الشرف فإذا اخذوا مجالسهم عليه ان يأذن للعامة واوصاه ان لا يأخذ الناس على جماعات .

ومع بداية العصر الاموي بُرِز نظام الحجابة مؤسسة ادارية لها وظيفتها ومكانتها بين مؤسسات الدولة واتخذت بعداً جديداً لتصبح وظيفة الحاجب لها اهميتها وخطورتها على حياة الخليفة وعلى تنظيم امور الدولة، وكان على الحاجب ان يمنع الخاصة والعامة الا بأذنه فقد منع معاوية ابي سفيان اقرب الناس من الوصول اليه- وهو ابنه- الا بأذنه كما اتخد الحرس الذين كانوا يتولون فضلاً عن حماية الخليفة تنظيم دخول الناس عليه نتيجة للأحداث الخطيرة التي تعرض لها الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن ابي طالب، وما تعرض له معاوية نفسه وعمرو بن العاص على يد الخوارج، ولازدحام الناس على ابواب الخلفاء مما كان ذلك يشغلهم عن واجباتهم.

وقد استحدث الخليفة معاوية باباً لل خاصة وباباً للعامة للدخول عليه، وبيدو ذلك من قوله لابنه يزيد
لقد جعلت بيني وبينك باباً كما بيسي وبين العامة فلم الدخول علي بدون اذن .

وقد وضع الخلفاء الامويون اسسأً في تنظيم دخول الناس عليهم فكان الحاجب يقدم من هو اشرفهم نسباً واكبرهم سنأً واكثرهم ادباً واستثنوا من هذه الشروط المنادى للصلوة، وطارق الليل، وصاحب الثغر، وصاحب الطعام .

ولم يقتصر اتخاذ الحجاب في العصر الاموي على الخلفاء فقط بل اتخد الولاة والقضاة وصاحب الشرطة حجاباً لهم ايضاً فكان حاجب زياد بن ابيه والي البصرة مولاه مهران .

وفي العصر العباسي حدث تطواراً في نظام الحجابة باستحداث منصب نائب الحاجب لينوب عن الحاجب في حالة غيابه او عزله. كما اتخد الخلفاء العباسيون حاجباً ثالثاً كانت مهامه لتولي حجابة خواص الخليفة. مما ساعد على ازدياد نفوذ الحاجب وسلطاته، كما كان بمثابة مستشار الخليفة في جميع شؤون الدولة مما فسح له المجال للتدخل في شؤون الدولة واصبح الوزير دون نفوذه احياناً. وقد اطلق عليه لقب (حاجب الحجاب) تمييزاً له عن باقي حجاب دار الخلافة. فكان بدر الخشنبي اول من تولى هذا المنصب في خلافة المتقى الله سنة ٣٢٩هـ.

ولقد كان للمكانة التي يتمتع بها الحاجب من منح العديد من الامتيازات فكان له موضع خاص لإقامته في دار الخلافة اطلق عليه (دار الحجة) ليكون قريباً من الخليفة. وكان للحجاب زيهم الخاص الذي يميّزهم عن غيرهم من كبار موظفي الدولة.

وقد نهض الحجاب في العصر العباسي بمهام خطيرة ليست من اختصاصاتهم فمن ذلك ما قام به الريبع بن يونس عند وفاة الخليفة المنصور من كتم خبر وفاته ومهد الامور حتى اخذ البيعة للمهدي. وقام بنفس الدور عند وفاة المهدي والبيعة للهادي.

كما قام الريبع بن يونس بدور كبير في تحسين العلاقة بين العباسيين والعلويين بأن حسن الخليفة المهدي على استئذن يعقوب بن داود. وادى ابنه حاجب الرشيد الفضل بن الريبع دوراً في اظهار خطر البرامكة على الخليفة.

ولم تثبت منزلة الحاجب ان زالت بظهور منصب (امير الامراء) في فترة النفوذ التركي والبوهي، وسيطر امير الامراء على مقاليد الامور في الدولة وجرد الخليفة من اغلب امتيازاته .

اما الحجابة في الاندلس.

فلما قامت الدولة الاموية في الاندلس على يد عبدالرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ عمل على نقل الرسوم والنظم العربية الاسلامية التي كانت متتبعة في المشرق ومنها نظام الحجابة واتخذت الحجابة مساراً اكثراً اهمية واعظم منزلة ومكانة عما كانت عليه في المشرق فكان بالإضافة الى قيامه بحجب السلطان عن الخاصة والعامة، كان واسطة بين الخلفاء والوزراء ومن دونهم، وبذلك اصبح الحاجب في الاندلس يفوق في مركزه الوزير في المشرق من حيث المكانة والنفوذ، وكان الامير او الخليفة الاموي في الاندلس يختار الحاجب من بين وزرائه ويميزه عليهم ويكون واسطة بينه وبينهم، وبذلك كانت مرتبة الوزير في الاندلس دون مرتبة الحاجب. فكان الحاجب في الاندلس يتولى رئاسة مجلس الوزراء ويشرف على شؤون الدولة الادارية والعسكرية .

وقد اسندت الى الحاجب في الاندلس وظيفة قيادة الجيوش في الحملات العسكرية وهو شبيه بالقائد الاعلى للجيش، وعد الحاجب من اكبر المجاهدين لان اهميته تكمن في انه مقاتل كبير دفاعاً عن الاسلام. فقد ولی الامير عبدالرحمن الداخل ثمام بن علقمه الحجابة وقيادة الجيش وارسله بقيادة جيش الى طليطلة سنة ١٤٧ هـ. وارسل الامير هشام بن عبدالرحمن سنة ١٧٧ هـ حاجبه عبدالملك بن مغيث الى بلاد الافرنج قائداً للجيش. وقد ابن ابي عامر حاجب الخليفة هشام بن الحكم الجهاد في اكثر من خمسين حملة عسكرية ولم يهزم قط في واحدة منها.

وقام الحجاب في الاندلس بنفس الدور الذي قام به حجاب المشرق في اخذ البيعة للخليفة الجديد، فقد تولى بدر بن احمد حاجب الخليفة عبدالرحمن الناصر اخذ البيعة من الخاصة والعامة، ولعزم المكانة

والاعمال الجليلة التي قام بها بعض الحجاب والوزراء في الاندلس كادت تصبح وراثية في بعض الاسر منها اسرة المغيث الرومي وبنو عامر وبنو ابي عبده وغيرهم وتشبه هذه الظاهرة ما حدث في المشرق فقد كادت الحجابة والوزارة تصبحان وراثيتين في بعض الاسر كالربيع والبرامكة والـ سهل والـ الفرات والـ الجراح .

صفات الحاجب واختصاصاته في المشرق والأندلس

كان منصب الحاجبة من الوظائف الخطيرة في الدولة العربية الإسلامية ويشترط لمن يتولاها ان يتتصف بالأمانة والصدق والولاء وتحتير من خلال ما توكل اليه من الاعمال في دار الخلافة كما يقتضي ان يتتصف بصفات خلقية كالفطنة والذكاء وصفات جسدية تكون جسيماً ووسيماً ذا هيبة ومهابة.

وتتحدد وظيفة الحاجب في تدقيق الداخلين على الخليفة من الاشراف والامراء والقادة وعامة الناس لأن سلامه الخليفة تتوقف على امانته واحلاصه وذكائه، كما يقتضي من الحاجب تنفيذ اوامر الخليفة بأمانته، وان يخبر الخليفة بما يعرضه الداخلين ليستخلص الخليفة رأياً في ذلك قبل الدخول عليه ليكون جوابه يدل على بعد نظر ودرأية ويعيناً عن التسرع والحرج وكانت تناط بالحاجب مهام اخرى كالاشراف على شؤون دار الخلافة وتنظيم مراسيم الاحتفالات فارتقت منزلته وعظم قدره بين موظفي البلاط .

المصادر والمراجع المستخدمة

- ١- الماوردي ، الاحكام السلطانية
- ٢- ابن يعلى الاحكام السلطانية
- ٣- ابن ابي الدم ، ادب القضاء
- ٤- الطقطقي ، الاداب السلطانية
- ٥- الماوردي ، نصيحة الملوك
- ٦- الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك
- ٧- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ
- ٨- المسعودي ، مروج الذهب
- ٩- مسكويه ، تجارب الامم
- ١٠ عبد العزيز الدوري ، النظم الاسلامية
- ١١ فاروق عمر فوزي ، النظم الاسلامية
- ١٢ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام
- ١٣ صبحي الصالح ، النظم الاسلامية

١٤ - شحادة الناطور ، النظم الاسلامية